صورة المرأة في قصص الأطفال وآثارها التربوية

عزيزة المانع*

* حصلت على الدكتوراه في التربية من جامعة متشيجان ـ أمريكا.
تعمل أستاذاً مساعداً بقسم التربية ـ جامعة الملك سعود.

الملخص

تهدف هذه الدراسة إلى البحث فيما يقدم للأطفال من صور مرسومة للمرأة من خلال الأدوار المعطاة لها في قصص الأطفال، ومدى تأثير تلك الصور على تشكيل أفكار الأطفال واتجاهاتهم تجاه المرأة.

ولتحقيق ذلك تم دراسة عدد من قصص الأطفال المنشورة حديثاً والمكتوبة للأطفال في المرحلة الابتدائية، وقد روعي فيها أن تكون لمؤلفين مختلفين ومن أماكن ودور نشر مختلفة.

ومن خلال تحليل المضمون وجد أن المرأة ظهرت في تلك القصص في صورة قبيحة ومكانة دنيا إذا ما قورنت بالرجل. وهذه الصورة السيئة المرسومة للمرأة تترك أثرها السيء في تشكيل نظرة الأطفال إلى المرأة، كما أنها تمثل صورة من صور التذبذب في سقي القيم للأطفال، فالأطفال يقرأون عن تكريم المرأة وتوقيرها عند الحديث عن مكانة الأم في الدين الإسلامي، أو عند الحديث عن زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم أو بعض الصحابيات الفضليات، ولكنهم أيضاً يقرأون ما يوحي بحقارة المرأة عند الحديث عن النساء كجنس عام.

مقدمة

لقد جاءت فكرة هذا البحث من خلال معاناتي الشخصية مع أطفالي إذ أني بحكم أمومتي لثلاثة أطفال قد اعتدت أن أقرأ لهم في بعض الأوقات، وخير ما يعجب الأطفال في السن الصغيرة هو القصص، لذا فقد حرصت على اقتناء عدد كبير من قصص الأطفال وحرصت أكثر على حسن اختيار تلك القصص، فكنت أضيع الوقت والجهد الكبيرين في سبيل انتقاء ما أظنه مناسباً لأولئك الصغار، ولكن برغم ذلك كنت في معظم المرات أحس بالخيبة والفشل وذلك حين أصدم بما احتوته تلك الحكايات من مفاهيم وأفكار سخيفة تدور حول المرأة وطبيعتها. لقد عمد معظم تلك القصص إلى إظهار المرأة على أنها في طبيعتها ميّالة إلى الكذب متقنة للكيد تتلذذ بالغيبة والنميمة، هذا إلى جانب كونها لا تجيد التفكير ولا تملك العقل، يسهل خداعها والتغرير بها، وهي لذلك أعجز من أن تعتني بنفسها أو تعتمد على ذاتها في تصريف شؤون حياتها.

لقد آلمني كثيراً كأم تحرص على أن لا يستقي أطفالها من منبع سوى الحقيقة، آلمني أن أجدني أقرأ لأطفالي حكايات تحمل هراء وسخفاً كهذا، ووجدتني أكف عن القراءة لأقوم بمراجعة متأنية لبعض ما تحويه مكتباتنا من كتب الأطفال وما تتضمنه تلك الكتب من أفكار وقيم، لقد وجدت المكتبات تعج بقصص الأطفال، ولعل القصص هي أكثر أنواع أدب الأطفال انتشاراً فهي تجد إقبالاً من الصغار يجعل الناشرين يفضلونها على صنوف الأدب الأخرى، وهذه القصص المنشورة تتفاوت ما بين الموضوع والمترجم إلا أنها تكاد تنحصر في ثلاثة فروع أساسية هي قصص الحيوانات وقصص الأساطير والخيال وقصص التراث، وهذه القصص تجمع فيما بينها الجيد والرديء وإن كان رديئها - في الغالب - يفوق الجيد منها. وهذا لا يعني أننا ننكر أن هناك بعض المحاولات المخلصة لتطوير فن الكتابة للأطفال والعمل على الارتقاء به إلى المستوى الجيد، إلا أن هذه المحاولات لا زالت قليلة إذا ما قورنت بالعدد الكثير من الإنتاج المتداول في هذا المجال الذي هو في حاجة إلى كثير من التطوير والتحسين حيث يفتقر معظمه إلى المعرفة الصحيحة لطبيعة الطفل النفسية وما يتعلق بميوله ومجال اهتمامه وإلى جانب كونه يتضمن أفكاراً ومفاهيم خاطئة حول أمور كثيرة تتعلق بالعلاقات الأسرية والاجتماعية والوطنية، فضلاً عن مواطن الضعف الفنية الأخرى المتعلقة باللغة والصور وطريقة رسم الكلمات.

إن هذا يجرنا إلى الحديث عن مسألة مَنْ الذي يكتب للأطفال؟ وما هي مؤهلاته؟ إذ أنه لا يكفي أن يكون الكاتب يحمل درجة علمية معينة في مجال من المجالات أو له باع طويل في الكتابة للكبار، فالكتابة للصغار فن متميز بمفرده، ولها من المواصفات ما يستدعي التمكن من مهارات خاصة مثل القدرة على فهم التكوين النفسي للأطفال وأسلوب التفكير عندهم ومعرفة ما يشد انتباههم ويجذبهم أكثر من غيره، هذا إلى جانب الإجادة في النواحي الفنية المتمثلة في خلق التشويق والسلاسة وإثارة الخيال والعاطفة إلى جمال العرض وبساطة اللغة. ويضيف عبدالتواب يوسف إلى مواصفات كاتب الأطفال أنه «من اللازم أن يكون محباً للأطفال، وأن يحاول دراسة اهتماماتهم وميولهم ورغباتهم واحتياجاتهم، فضلاً عن معرفة قاموسهم اللغوي حتى لا يكتب لهم ما هو فوق مستواهم، فيصعب عليهم فهمه واستيعابه أو ما هو أقل من مستواهم فينصرفون عنه لعدم ملاءمته لأعمارهم»[١].

كذلك فإننا لا نستطيع أن نخلي الأهل من مسؤولية اختيار ما يقرأه صغارهم، وإذا كنا نشكو من انعدام سلطتنا على التلفزيون الذي يقتحم بيوتنا ويقدم مالا نريد لأطفالنا فإن أيدينا ملؤها التحكم بالكتب التي هي حبيسة الأرفف مالم تمتد يدنا لحملها راغبين إلى صغارنا، وعندما يحسن الأهل اختيار القصة فإن القصة الرديئة لن تجد لها مكاناً على الرف، ولكن الأهل لن يحسنوا الاختيار مالم يرتفع الوعي وتزداد الثقافة بين الآباء والأمهات.

وليس المقصود بارتفاع الوعي بين الوالدين، الحصول على درجة علمية معينة وإنما المقصود هو إعطاء «تربية الأطفال» كثيراً من الاهتمام والتقدير، واعتبارها علماً يكتسب بالاطلاع والبحث والتعلم وليس مجرد أمر يورث من الآباء ضمن مايورث من أساليب الحياة.

وما لم تنل تربية الأطفال ما تستحقه من جد واهتمام، ومالم ينظر إليها كعلم مهم يجب أن يكتسبه كل أب وأم وليس جماعة المتخصصين فقط، فإن صغارنا سيظلون معرضين لمختلف التيارات التربوية السيئة التي تتقاذفهم كالكرة بلا هدف واضح أو مبدأ سليم.

خطة البحث

هذا البحث هو دراسة تحليلية لعدد من قصص الأطفال بهدف إبراز الصور والمفاهيم الخاصة بالمرأة كما جاءت في تلك القصص، وتوضيح الأثر التربوي لهذه الصور والمفاهيم على نظرة الأطفال إلى المرأة. ونود أن نشير إلى أن هذه الدراسة لا تتناول جميع ما يعرض في تلك القصص من معانٍ وقيم وأفكار وإنما هي تقتصر على ما يقدم فيها من صور تمثل المرأة وذلك ليلقي الضوء على المكانة التي تحتلها المرأة في

قصص الأطفال في تشكيل صورة المرأة في ذهن الطفل.

عينة الدراسة

حرصاً على موضوعية الدراسة وصدقها عمدنا إلى اختيار ثلاث عينات قصصية هي:

١ ـ حكايات شعبية مدونة باللغة الفصحى.
٢ ـ حكايات موضوعة باللغة العربية.
٣ ـ حكايات مترجمة عن الغرب.

وقد روعي في اختيار العينة عدة عوامل منها:

١ ـ أن تكون منتشرة في المكتبات وفي متناول الأطفال.
٢ ـ أن تكون مقروءة.
٣ ـ أن تكون موجهة لأطفال المرحلة الابتدائية.
٤ ـ أن تكون من المنشورات الحديثة (معظمها منشور سنة ١٩٨٤ وما بعد).
٥ ـ أن تكون صادرة في أكثر من بلد عربي (لبنان، مصر، السودان، تونس، الكويت).
٦ ـ أن تكون صادرة عن دور نشر مختلفة هي (دار المعارف، دار شهرزاد، دار الحارث، مكتبة لبنان، مكتبة مصر، مكتبة سمير، الشركة التونسية للتوزيع).

وقد تم التركيز في دراسة هذه العينة على النواحي الآتية:

كيف تظهر صورة المرأة في القصة المقدمة للطفل؟ وهل هذه الصورة صادقة؟ وما هي القيمة التربوية وراء إبرازها؟ وما الهدف من محاولة تجسيدها وتثبيتها في أذهان الصغار؟

أثر القراءة في تكوين الشخصية

من المعروف أن الشخصية لها جوانب مختلفة منها ما يتعلق بالمعرفة ومنها ما يتعلق بالانفعال ومنها ما هو روحي أخلاقي ومنها ما له صلة بتذوق الجمال وما له صلة بالعلاقات الاجتماعية، وهذه الجوانب المتعددة للشخصية تتكون وتنمو من خلال تفاعل المرء مع ما يمر به من مواقف وخبرات وما يكتسبه من مفاهيم وقيم ومعايير، ومرحلة الطفولة تعد القاعدة الرئيسية التي يتم خلالها تشكيل الشخصية، ويرى ذكاء الحر أن «ما يعطى في هذه المرحلة من مراحل النمو يعتبر أكثر أهمية من غيره فالطفولة تسهم إسهاماً هاماً ورئيسياً ولا نغالي إذا قلنا حاسماً أحياناً في بناء الشخصية من شتى النواحي الاجتماعية والنفسية والعقلية وبالطبع الثقافية»[٢]. والقراءة تعد إحدى الوسائل التي من

خلالها يكتسب المرء المفاهيم والقيم التي يؤمن بها، والتي تسهم في تكوين جوانب شخصيته وتشكيل سلوكه. ويؤكد النعيمي على أهمية القراءات الأولى إذ يقول: «إن القراءات الأولى للطفل هامة جداً في صنع تصوراته للظواهر الاجتماعية وتكوين القيم الخاصة التي يبني عليها حياته»(٣)، وصلة المرء بالقراءة ـ إذا أتيحت له الفرصة تبدأ مبكرة جداً، ربما منذ السنة الثانية من العمر حيث يأخذ الطفل في النظر إلى الصور وإدراك أن تلك الصور تحمل معانٍ معينة وأن لها دلات خاصة(٤) فيأخذ في ملاحقة والديه أو من يقوم برعايته غيرهما ليوضح له ما تعنيه تلك الصور. ومع تقدم الطفل في العمر وتعوده على مصاحبة الكتاب نجد أن ميله إلى القراءة يزداد ويتطور فنجده في مرحلة ما قبل المدرسة يستمتع كثيراً بالإصغاء إلى الحكايات التي تروى له من الكتاب ويقضي بعض وقته في تقليب صفحات الكتب والنظر إلى صورها وتقليد الكبار في محاولة لفك رموز الكلمات التي يحويها. ومع انتقال الطفل إلى المدرسة تبدأ علاقة أخرى بينه وبين الكتاب، فيأخذ الكتاب صورة أكثر أهمية من قبل، وينظر إليه الطفل بتقدير كبير على أنه المصدر الموثوق للمعارف والمعلومات. ومن هنا تظهر أهمية اختيار الكتاب المقدم للطفل، إذ قد يكون الأثر السيء للقراءة على شخصية الطفل أكبر من الأثر الحسن إذا لم يحسن اختيار المادة المقروءة التي بين يدي الطفل. ومن المعروف أن أثر القراءة في تكوين الشخصية ليس مقصوراً على الأطفال وإنما هو يمتد ليشمل البالغين أيضاً ولعل في القول الشائع (قل لي ماذا تقرأ أقل لك من أنت) أصدق تعبير عن أثر القراءة على شخصية الفرد. وإذا كان للقراءة أثرها الملحوظ في تشكيل شخصيات وسلوك البالغين فإن أثرها على الأطفال أقوى وأوضح، فمن خلال ما يقرأه الطفل تغرس في نفسه القيم والمبادىء وتتكون لديه الاتجاهات، بل إنه كلما صغر سن القاريء اشتد أثر القراءة على شخصيته. وهذا ما يدفعنا الى القول بضرورة الاهتمام بكتب الأطفال والناشئة ربما أكثر من الاهتمام بالكتب المقدمة للكبار، فالكبار لديهم من الخبرة والمعرفة ما هو كفيل بجعلهم يميزون ما بين الغث والسمين من صنوف القول، بينما الصغار بحكم ضآلة خبرتهم وبحكم طبيعتهم الغضة لا يزالون في حالة مرونة ولدانة تجعل من السهل التأثير عليهم وتشكيلهم بحسب ما يوحي به النص الذي يقرأونه، ولعل هذا الأمر هو الذي دعا روسو إلى القول بأن «إساءة استخدام الكتب تقتل العلم»(٥) فروسو يرى أن انغماس الطفل في القراءة يجعل عقله يتوقف عن التفكير مكتفياً بما يقدمه له الكتاب من فكر ولأن روسو يريد للطفل أن يتعلم التفكير الحر المستقل أخذ ينادي بعدم تقديم الكتب للصغار حتى سن متأخرة ينمو خلالها تفكيرهم الخاص ويتبلور، ويبدو أن دعوة روسو إلى إبعاد الكتب عن الطفل ليست ناتجة فقط من كون الكتب ـ كما يقول ـ تعوق تفكير الطفل بل لأنها أيضاً «تعلمه أن يخوض في الكلام فيما لا يعرف»(٦) ونحن وإن كنا لا

نؤيد روسو في نفوره القوي من القراءة وتقديم الكتب للصغار، إلا أننا نود أن نتوقف قليلاً لنتأمل ما رمى إليه روسو في قوله أن الكتب تعلم الطفل الخوض في الكلام فيما لا يعرف، ذلك أن كثيراً من الكتب تقدم معلومات ناقصة أو محرفة فيها كثير من المغالطة والتشويه للحقيقة ولكن الطفل لانعدام خبرته في الحياة وقلة المخزون لديه من الأفكار والمعلومات يتقبل ما تقدمه له تلك الكتب على أنه شيء يمثل الحقيقة المطلقة، ولأن الطفل الصغير لا يعرف التأمل والتفكير المنطقي[٧] فإنه يعتنق كل فكرة تواجهه ويأخذ في ترددها والتمسك بها وتظل منغرسة في نفسه متشبثة في ذهنه مهما مرت السنون بعد ذلك ومهما زاحمتها أفكار أخرى. وما دام أن الفكرة التي تقتحم عقل الصغير تلتحم بتفكيره وتساهم في تشكيل شخصيته وتوجيه سلوكه في الحاضر والمستقبل فإنه يضحى من الضروري الاهتمام بكل ما يقدم للطفل من خبرات ومعلومات وأفكار، من بين ذلك تلك الأفكار التي تسقى للأطفال عن المرأة ودورها في الحياة والتي هي محور اهتمام هذا البحث.

القصة في التربية

تحتل القصة مكاناً بارزاً في قراءات الأطفال، إذ برغم أن ما يقرأه الأطفال كثير ومتنوع مثل المجلات والأناشيد والكتب إلا أن القصة تعد أكثر أنواع القراءة انتشاراً وشيوعاً بين الصغار وأعظمها تأثيراً عليهم[٨]. ويشير هادي الهيتي إلى أهمية القصة في نشر الثقافة والمعرفة بقوله: «والقصة اليوم وسيلة من وسائل نشر الثقافات والمعارف والعلوم والفلسفات وبسبب ما تنطوي عليه من جاذبية كانت من أشد ألوان الأدب تأثيراً في النفوس حتى وجدنا أن كثيراً من القيم والمفاهيم والنظريات والفلسفات كانت القصة السبب الأول في ذيوعها وانتشارها قبل أي وسيلة أخرى»[٩]. ويقبل الصغار على القصة بشغف كبير ولذة عظيمة وذلك بسبب توفر عنصر التشويق وسعة الخيال وإثارة العواطف والانفعالات، فضلاً عن أن القصة توفر للأطفال الفرصة للتحليق بخيالهم في أجواء خاصة كما تثير لديهم انفعالات متباينة ما بين الرضى والغضب، والخوف والأمن، والسعادة والحزن، وهم في هذا كله يعيشون مع أبطالها ويتجاوبون مع أفكارها[١٠]، فما ترسمه طيباً مقبولاً يكون لديهم طيباً مقبولاً، وما ترسمه سيئاً منبوذاً هو لديهم سيء منبوذ، وكثيراً ما نجد أن الأطفال يندمجون مع أبطال قصصهم حتى ليأخذون في تقمص شخصياتهم واكتساب أدوارهم[١١]. وهذا يعني أنهم لا شعورياً يمتصون الصفات المختلفة التي يتصف بها أبطال تلك القصص، وقد أشار إلى ذلك النعيمي بقوله: «إن تأثير هذه القصص يتعدى الانفعال المؤقت ليظهر في سلوك الطفل وتقليده لأبطالهاوشخصياتها»[١٢].

وقد أدركت التربية الحديثة ما للقصة من أهمية في تشكيل الأفكار وتشريب القيم والمبادىء فسعت إلى إدراج القصة ضمن المناهج التربوية الحديثة «لأن المعلومات والحوادث التي تتضمنها هذه تؤثر في تكوين الطفل العقلي والخلقي وفي ذوقه وخياله»[١٣].

ولكن ـ كما يقول ـ ذكاء الحر فإن «القصة تستخدم في التربية كوسيلة تعليمية خاضعة لرأي المؤلف والمجتمع»[١٤]، وهذا ما يجعلها أداة ذات حدين فهي قد تستخدم لتطوير النشء وتقدمه وقد تستخدم لتجميده وإبقائه في دائرة الأفكار العتيقة المتوارثة.

ومع أن البعض يرى أن دور القصة قاصر على التسلية والترفيه إلا أن الواقع يشير إلى أن كثيراً من القصص تحمل في باطنها دعوات إلى قيم واتجاهات معينة، ومن يقوم بتحليل قصص الأطفال يصل إلى رؤية بينة تكشف له عما أراد البالغون إيصاله إلى الصغار من أفكار ومفاهيم وقيم هي ليست بالضرورة قيماً ومفاهيم صحيحة وإنما هي تمثل سمات المجتمع الذي أخرج تلك القصص، كما تمثل الاتجاه الذي يراد فرضه أو الاحتفاظ به.

تحليل المضمون

يشير تحليل المضمون لعينة البحث إلى وجود بعض المفاهيم الخاصة ذات الصلة بالمرأة والتي تظهرها كمخلوق أدنى رتبة من الرجل خلقاً وعقلاً وعطاءً. ويمكن تصنيف هذه المفاهيم في فئات ثلاث هي:

أولاً: مفاهيم تدور حول أهمية الزواج والجمال والشباب بالنسبة للمرأة.

ثانياً: مفاهيم تتعلق بمكانة المرأة وقدراتها.

ثالثاً: مفاهيم تتعلق بالصفات الخلقية للمرأة.

أولاً: ما يتعلق بالمفاهيم السائدة عن الزواج والجمال والشباب

في تلك القصص يمثل الزواج بالنسبة للمرأة الغاية النهائية وخاتمة السعادة، فحظ المرأة يرتكز في الحصول على زوج، وهذا الزوج مهم لأنه يملك في يده مفاتيح آمال وأحلام وطموح المرأة.

فوسيلة المرأة الكبرى لتحقيق الأحلام هي الحصول على الزوج الذي من خلاله يمكن أن تتحول الأمنيات إلى حقائق والأحلام إلى واقع. ولكي يكون الزوج قادراً على تحقيق الأمنيات والأحلام لا بد أن يكون ثرياً. فالزواج بحد ذاته ليس هو الغاية بقدر ما

أنه مطلوب لكونه الوسيلة المعروفة لتحقيق رغبات المرأة، لذلك تسعى معظم القصص إلى ختم تعاسة البطلات عن طريق زواجهن من السلطان أو الأمير أو الوزير أو التاجر الكبير كما جاء في عدد من القصص مثل (جميلة والوحش)[١٥] و(الملك عادل)[١٦] و(جبل العجائب)[١٧]. في قصة (جبل العجائب) نجد أن البطلات الثلاث يحلمن بأن تتحقق أمانيهن عن طريق الزواج من الملك ورجاله، حيث تتمنى الأولى الزواج من طباخ الملك لتأكل ما تشاء من الأطعمة اللذيذة، بينما الثانية تتمنى أن تتزوج صانع الحلوى الذي سيمتعها بألذ أنواع الحلوى، في حين أن الثالثة لم تقنع بأقل من الملك نفسه الذي سيقدم لها كل ذلك ويزيد. وتقول القصة: «جلست ثلاث شقيقات جميلات صغيرات السن يتحدثن ذات ليلة من ليالي الصيف عن أمل كل منهن في الحياة، فقالت الكبرى: أتمنى على الله أن أتزوج طباخ الملك، فتتم سعادتي لأني سآكل حتى أملأ بطني من أفخر اللحوم والطيور... فقالت الثانية: أما أنا فأتمنى أن أتزوج صانع الحلوى كي أتمتع بطعم البقلاوة المحشوة بالفستق، والقطائف المحشوة باللوز... فقالت الصغرى... أتمنى أن أتزوج الملك...»[١٨].

والحصول على زوج ثري يحقق الأحلام ليس بالأمر الهين وإنما هو يتطلب مواصفات خاصة أهمها الجمال وصغر السن، كما أنه قد يتطلب المهارة في حياكة الدسائس والمؤامرات للتخلص من المنافسات، وربما استدعى الأمر التقاتل ما بين الأخوات أو بنات العم للفوز بالفارس المنشود.

وصور الكراهية والحقد ما بين أفراد العائلة الواحدة بسبب التنافس على الفوز بالزوج الثري تتكرر كثيراً في قصص الأطفال[١٩]، مما يشير إلى تركيز تلك القصص على أهمية هذا الزوج في حياة المرأة وارتباط الحياة السعيدة بحصولها عليه.

وبما أن الجمال وصغر السن هما المطيتان اللتان تحملان المرأة إلى الزوج الثري فإن الحصول على الجمال والاحتفاظ بالشباب يصبحان الهدف الذي تكرس له المرأة همتها، ويضحيان الشغل الشاغل لها، فنشاطها ومهارتها وتفكيرها جميعه موقوف على تطوير معرفتها بما يزيد الجمال ويحفظ الرونق والصبا، وهي في ذلك لا تبالي بأن تكيد وتحقد وتتآمر وتقوم بالمخاطرات، فالهدف عظيم يستحق كل ما يبذل من أجله، وذلك كما يظهر في قصص مثل (أطفال الغابة)[٢٠] و(البجعات المتوحشات)[٢١] و(زوجة الأب)[٢٢].

ففي قصة (أطفال الغابة) نجد أن البطلة تعرض أخاها للمخاطر وتضحي بسلامته في سبيل أن يحضر لها (ماء الحياة) الذي سيجعلها أجمل فتاة في العالم[٢٣]. أما في قصة (زوجة الأب)[٢٤] فتظهر الزوجة وهي تحيك الدسائس لابنة زوجها الجميلة الوحيدة.

والجمال وصغر السن مطلوبان ليس فقط لأنهما يجلبان الزوج الثري بل لأن التي يجتمعان لديها تصبح بقدرة قادر مؤهلة لامتلاك مزايا أخرى لا تحظى بها الأخريات مثل الذكاء واللطف وحسن الخلق ومحبة الآخرين، فهذه الصفات مقصورة على الجميلات الشابات وهي تبرز مع بروز الجمال وتختفي مع اختفائه.

وفي عدد من القصص مثل (جميلة والوحش) و(الأخوات الثلاث) و(أحب لغيرك ما تحبه لنفسك) و(عروس البحر) نجد أن المرأة «الصغيرة الجميلة» هي دائماً ذكية ولطيفة ومحبوبة في حين تظهر المرأة الكبيرة والقبيحة غبية وشريرة وحاقدة ومكروهة من الجميع. وكثيراً ما تنص هذه القصص على أن «صغرى» الشقيقات هي الأجمل والأذكى والأعقل والمفضلة عند الوالدين وذلك مثل: «على أن أصغرهن كانت تفوقهن جميعاً بالحسن والبهاء والجمال الخلاب»[٢٥]. «أما الأميرة الصغيرة فكانت على جانب عظيم من الجمال والذكاء وكرم الأخلاق»[٢٦]. «....الكبرى لا تحب العمل والوسطى مهملة لا تحب النظام، أما الصغرى فكانت مطيعة محبة للعمل والنظام، كريمة الخلق كثيرة العطف على غيرها»[٢٧]، «أما البنتان الكبيرتان منهن فكان منظرهما قبيحاً وكان غضبهما كثيراً، وأما البنت الصغرى فكانت جميلة مؤدبة»[٢٨].

هكذا يتم بإحكام الربط بين صغر السن والجمال وحسن الخلق، مما يدعم أهمية الصغر والجمال في حياة المرأة، إذ أن المعادلة واضحة، فمتى ما توفر الشباب والجمال فإن المزايا الأخرى تابعة حتماً، ولعله مما يستحق الذكر أن نشير إلى أن هذه المعادلة تفقد توازنها في عالم الرجال فصحتها قاصرة على جنس النساء فقط، فالرجل قد يكون قبيح المنظر لكن قبحه لا يحول دون أن يكون رقيقاً، دمث الأخلاق، كريماً، ذا مروءة كما جاء في قصة (جميلة والوحش) حين قبلت البطلة الزواج من الرجل القبيح قائلة: «خير لي أن أتزوج إنساناً قبيح المنظر كثير الشفقة والمحبة من أن أتزوج رجلاً جميل الوجه قليل الشفقة قاسي القلب»[٢٩]، كذلك فإن الرجل قد يكون هرماً لكنه يمتلك الحكمة والوقار والطيبة وينال احترام الآخرين، وذلك كما ظهرت شخصية الرجل العجوز في قصتي (جبل العجائب) و(أطفال الغابة). في حين أن كل القصص - موضع الدراسة - لم تعط للمرأة العجوز، ولو مرة واحدة، صفة الحكمة أو الوقار أو الحنكة، بل إنه في كثير من هذه القصص يظهر الشر ممثلاً في شخصية المرأة العجوز فهي ساحرة وشريرة وحاقدة ومؤذية، وغالباً ما يشار إليها بعبارات الذم مثل «ولما عادت العجوز الخبيثة»[٣٠]، «وخرجت العجوز الشريرة»[٣١]، «انصرفت العجوز الماكرة»[٣٢]، «ولكن العجوز الملعونة»[٣٣]. ويقابل هذه الصور الدميمة للمرأة العجوز صور جميلة للرجل الشيخ فهو إما ناسك أو متعبد أو حكيم وتتوالى الإشارة إليه بالثناء والتقدير وذلك مثل «ولولا إرشادات الشيخ الطيب لما نجوت»[٣٤]، و«قد حذرني هذا الشيخ الطيب من الحسد والطمع»[٣٥]،

«شكر الأمير الصغير للرجل الصالح نصيحته»[٣٦]، «واستمر سائراً حتى قابل شيخاً صالحاً من رجال الدين»[٣٧].

إذاً ـ من منظور هذه القصص ـ الهرم يضفي على الرجل رداءً من الخير والصلاح أما المرأة فمتى فقدت الشباب فقدت معه كل خير.

ثانياً: مفاهيم تتعلق بمكانة المرأة وقدراتها

من خلال مجموعة القصص التي تناولتها الدراسة، لوحظ أن المرأةُ تُقَدَّم على أنها مخلوق أدنى من الرجل في المكانة والقدرات، خاصة ما كان منها معتمداً على الذكاء أو الشجاعة والقوة، ويظهر هذا المفهوم واضحاً من خلال الدور السلبي الذي أعطي للمرأة في تلك القصص، ويتضح هذا الدور في بضع نقاط مثل:

ـ ضعف المرأة وعجزها.

ـ وضع القيادة دائماً في يد الرجل وجعل المرأة تابعاً له.

ـ جعل المرأة مكافأة يحصل عليها الرجل عندما يفوز.

ـ جعل المرأة عاجزة عن الكسب الاقتصادي.

ـ تعطيل دور الأم في الإرشاد والتوجيه.

ـ قصر دور المرأة في الحياة على الشؤون الوضيعة.

ضعف المرأة وعجزها

في كثير من القصص تصور البطلة وهي تعاني من الاضطهاد والظلم وتتحمل ذلك بخضوع واستسلام، وتتقبل بذلة كل ما يقع عليها من أنواع الأذى دون أن تبذل أي جهد في دفع ثقل المعاناة عن كاهلها، بل هي تكتفي بالانتظار في صبر عجيب أن يأتي إليها الفرج على يد غيرها لا يدها هي. وذلك كما حدث للبطلات في قصص مثل «من أميرة إلى راعية أوز» و«لعيبة الصبر» و«جلد الحمار» و«البجعات المتوحشات» و«الأخوات الثلاث». ففي قصة «من أميرة إلى راعية أوز» نجد أن الخادمة تتنكر لسيدتها وترغمها على تبادل الأدوار معها، وتقبل السيدة ما فرضته عليها خادمتها دون مقاومة مكتفية بالصبر، حتى يكتشف الملك الحقيقة فيتم إنقاذها[٣٨]. ويتكرر نفس الموقف مع بطلة أخرى في قصة «لعيبة الصبر» حيث تقوم الخادمة بانتحال شخصية ابنة التاجر الثري وتنسب إلى نفسها ما فعلته سيدتها من أجل الأمير المسحور، فينخدع الأمير بذلك ويتزوج الخادمة و«غصت البنت بما رأت وغاصت روحها في صمت رهيب وحزنت حزناً

شديداً ولكنها سكتت ولم تتكلم»[٣٩]. وهكذا أخذت ابنة التاجر تقوم بدور الخادمة مؤمنة أن ليس لها سوى الاستسلام والصبر إلى أن أدت الصدف بالأمير إلى اكتشاف الحقيقة فأعاد الأمور إلى نصابها وأنقذ الفتاة من الهوان الذي عاشته سنوات طوال. وفي قصة «جلد الحمار» نجد بطلة القصة تعاني من الشقاء والاضطهاد والذل ولا تجد أمامها سوى أن تعزي نفسها وتمنيها بالخلاص مما تعانيه من مشقة على يدي أمير جميل يحبها ويتزوجها حيث تقول: «لا بد أن يراني ذات يوم أمير جميل فيعجب بي ويتزوجني، وبذلك تنتهي متاعبي في هذه الحياة وأصبح أسعد مخلوق على وجه الدنيا»[٤٠].

أما في قصة «البجعات المتوحشات» فإن البطلة تتعرض لاستبداد زوجة أبيها ـ وهي صورة تتكرر كثيراً في قصص الأطفال ـ وتتقبل البطلة هذا الاستبداد بخضوع كبير وسلبية تامة إلى أن رآها الملك «فإذا هي أجمل فتاة رآها في حياته فمال قلبه إليها»[٤١]، «وكان شاباً فتياً لم يتزوج فاختارها زوجة له»[٤٢]، وتتكرر نفس الصورة في قصة «الأخوات الثلاث» حين تتعرض بطلة القصة لصنوف من القسوة والاحتقار والمهانة تقبلتها جميعاً بصمت وصبر بالغين حتى التقت بالأمير الذي خلصها مما تعانيه، قائلاً «اسمحي لي يا أميرتي أن نعقد زواجنا في هذا اليوم نفسه فأصحبك إلى مملكتي وأنقذك من استبداد أهلك»[٤٣].

إن تكرار المواقف السلبية للمرأة تجاه ما يمر بها من مشكلات وظلم ومعاناة، واكتفاؤها بانتظار النجاة على يد الآخرين ـ الذين هم غالباً من الذكور ـ هو ترسيخ لمفهوم الضعف والعجز عند المرأة، فهي تبدو غير قادرة على جلب النفع أو دفع الأذى عن نفسها وهي في حاجة دائمة إلى من يتولى أمرها ويقضي حاجتها، وهذا التجسيد لعجز المرأة وحاجتها المستمرة إلى من يرعى شئونها، يتضمن أيضاً اتصاف المرأة بصفات هي من دواعي العجز مثل الاتكالية المطلقة والطاعة والخضوع والتبعية.

تبعية المرأة

المرأة لا تملك لنفسها شيئاً ولا تحقق لذاتها أمراً، وإنما حياتها مرتبطة بالرجل، إن كان أميراً أضحت أميرة، وإن كان شحاذاً أضحت شحاذة، إن كان طيباً عطوفاً ذاقت معه السعادة، وإن كان شريراً نذلاً اكتوت بالجحيم. ولعل قصة «الملك عادل» تعطينا نموذجاً لتبعية المرأة، فالقصة تقول إن الملك غضب على ابنته وصمم على معاقبتها على غرورها وكبريائها وقرر تزويجها من أول شحاذ يمر به، ولم تجد البنت مفراً من الرضوخ والإذعان لإرادة أبيها. ثم تظهر تبعية الزوجة في لفظ صريح حين يوصي الأب ابنته قائلاً: «فهذا السائل زوج لك، وهو المسؤول عنك، وعليك طاعته»[٤٤] وترافق الزوجة زوجها بالتبعية لتعاني معه حياة الفقر والذل والهوان لكنها لا تجد مفراً من طاعته واتباعه والامتثال لأوامره وتعليماته.

كذلك من تبعية المرأة ما يتردد في تلك القصص من اعتبار المرأة جائزة يحصل عليها المنتصر في أمر ما وكثيراً ما يتكرر ظهور عبارات مثل «ومن يقدر أن يسرد هذه القصة التي لا نهاية لها يتزوج ابنتي»[٤٥]. «ولما ضاقت بالملك الحيل عن تحقيق أمنيته الكبرى (....) أذاع أنه يمنح يد ابنته ونصف مملكته، لمن يتغلب على الشجرة فيطرحها أرضاً»[٤٦]. «لقد أحسنت الرمز وأحسنت الغناء (....) سأعطيك ابنتي الأميرة مكافأة لك»[٤٧]، وهكذا يصبح الزواج من البنات مكافأة تقدم للفائزين، مثله مثل إهداء القصور والمزارع وأطناب الذهب.

عجز المرأة عن الكسب

إن كسب العيش هو من اختصاص الرجل، والمرأة التي لا رجل لها ليس أمامها سوى البكاء والتحسر، في قصة «القدر السحرية»[٤٨] نجد أن الأم أرملة وهذا يعني أنها لا عائل لها لذلك فهي فقيرة جداً يخلو بيتها من الطعام، مما جعل ابنتها الصغيرة تبكي وتتلوى من ألم الجوع والأم تنظر إليها بأسى لكنها لا تستطيع أن تفعل شيئاً، إذ أن كسب العيش من مهام الرجل. وعندما يحدث أن تتحدى المرأة هذا المنطق وتصر على أن تكسب عيشها ولا تستسلم للجوع كما في قصة «الحانوت الجديد» حين استطاعت الأرملة أن تجد لها عملاً تعول منه نفسها وأولادها، فإن وضعها يصور على أنه مثير للشفقة والرحمة، ويبدو عملها مخالفاً للوضع الطبيعي ويقدم على أنه أمر يستدعي التحسر على تلك المرأة التي «اضطرت» لكسب العيش بنفسها، كما تنص عبارات القصة على ذلك «وقد اضطرت السيدة للعمل وكسب معيشتها بعد وفاة زوجها لأنه لم يترك لأسرته شيئاً من المال»[٤٩]. إن ما توحي به القصة هو أن ممارسة المرأة للعمل مهانة وذل وشقاء لذلك لا تقدم عليه المرأة إلا «مضطرة». إن مفهوم اختصاص الذكر بكسب العيش يتغلغل في ثنايا القصص حتى يمتد إلى عالم الحيوان، فنجد أن «الأسدة الكبيرة» لما شكا لها أولادها الجوع ذهبت إلى أبيهم «الأسد الجبار» وقالت: «جاع الأولاد، وزقزقت عصافير بطونهم فماذا تنتظر لتخرج في طلب الصيد»[٥٠]. وليس «الأسدة الكبيرة» وحدها التي تستغيث بالزوج لجلب الطعام بل كذلك «الثعلبة الكبيرة» فهي أيضاً تتجه إلى زوجها تسأله في استنكار «ماذا تنتظر كي تخرج في طلب القوت لأولادك؟»[٥١]. وهكذا تعمل تلك القصص على ترسيخ الإيحاء بعجز الأنثى وقصورها، حتى الأسدة والثعلبة صورتا عاجزتين عن الصيد وإطعام الأطفال، مقرتين أن هذا الأمر هو من اختصاص الذكور فقط.

تعطيل دور الأم

ولكون الأنثى عاجزة عن كسب العيش فهي في مكانة أدنى من مكانة الذكر، وإليها تسند المهمات الوضيعة، أما المهمات الفكرية والعقلية فهي من نصيب الرجل،

فمثلاً عندما يكون الأمر يتعلق بتربية الأولاد فإن نصيب الأب هو التوجيه والإرشاد والإشراف، أما الأم فإن دورها يقتصر على طبخ الطعام وغسل الثياب، ويظهر هذا التقسيم الصريح على لسان طفل صغير يتحدث عن والديه حيث يقول: «لقد بلغ حبي لأبوي قدراً كبيراً، فقد كانا يتعبان من أجلي كثيراً، فأمي تقضي وقتها في إعداد طعامي وتنظيف ملابسي وتوفير الراحة لي أثناء نومي، أما أبي فقد كان حريصاً على تعليمي وتأديبي»[٥٢]، هكذا تحدث الطفل عن أبويه حيث بدا الأب مهتماً بتنمية الجانب العقلي لطفله، في حين انحصر اهتمام الأم في تقديم الرعاية المادية المتمثلة في تهيئة الطعام واللباس. وتعطيل دور الأم الفكري في تربية الأولاد ليس مقصوراً على الحالات التي يكون الأب موجوداً فيها، بل إنه يمتد حتى بعد وفاة الأب، في قصة «الوصية المدهشة» نجد أن الابن يسوء سلوكه أثناء مرض أبيه الذي أقعده في الفراش، يزداد سوء السلوك بعد وفاة الوالد، أما الأم فالقصة تفترض أنها لا تملك القدرة على توجيه الابن أو الإشراف عليه، وإنما كل ما تملكه تجاه ضياع ابنها وفساده هو البكاء والنحيب. تصف القصة موقف الأم من ابنها بعد وفاة أبيه بالعبارة الآتية «وفي ساعة متأخرة من ليلة عاصفة اشتد فيها البرد سمع أحد الغرباء امرأة تبكي وراء باب أحد المنازل، إنها زوجة الشيخ عبدالكريم تترقب عودة ابنها (...) وما أن رأته أمه على هذه الحالة حتى سقطت على الأرض وأخذت تندب حظها»[٥٣]، هذا كل ما تقدر عليه المرأة، ندب الحظ، والتحسر، وانتظار معجزة تحدث لتنقذها من أذاها.

دور المرأة

ما دام أن المرأة لا تصلح لكسب العيش ولا لتوجيه الأولاد وإرشادهم، فلأي شيء تصلح إذن؟ من خلال تلك القصص، المرأة لا تصلح لشيء غير الطبخ والخياطة والتطريز وأن تكون خادماً مطيعاً للزوج، وهذا الدور يلتصق بالمرأة حتى عندما تكون ملكة أو أميرة، فإنها تظل في حاجة إلى أن تتقن الطبخ والتطريز وتدبير البيت كي تصبح «زوجة صالحة»، في قصة «بنت الأمير» نجد أن الأمير يعنى بتربية ابنته وتهذيبها، فهو يجلب لها أشهر المعلمات ليعلمنها «الخياطة والتطريز والطبخ والتدبير وكل ما يؤهلها لأن تكون زوجة صالحة»[٥٤]، إذ أن مواصفات الزوجة الصالحة محدودة بحدود المطبخ متى سيطرت عليها المرأة تم لها الصلاح، وهذه الفكرة ليست خاصة بالقصة العربية أو الفكر العربي وحده، وإنما هي فكرة ذات جذور عميقة متشعبة في العالم كله، ونجد أن روسو في كتابه أميل يؤكد هذه الفكرة ويثبها في ثنايا الكتاب عند حديثه عن المرأة.

ثالثاً: مفاهيم تتعلق بالصفات الخلقية للمرأة

في كثير من القصص نجد ميلاً واضحاً إلى تعميق فكرة وجود صفات أخلاقية

فطرية خاصة بالمرأة لصيقة بها منذ ولادتها وذلك مثل صفة الحماقة والغباء والسطحية وعدم كتمان السر والإسراف والثرثرة وحب المظاهرة والغيرة والحقد والكيد وما شابه ذلك من صفات دنيئة في السلوك البشري.

في قصة «القبعة المسحورة» نجد الأب يوصي ولده أن لا يأمن امرأة على سره «فالنساء لا يقوين على كتمان الأسرار وقد يضررن من حيث يردن النفع»[٥٥]. أما في قصة «الحظ النائم» فنجد نصاً صريحاً على أن المسؤولية تضيع بين يدي المرأة وأن من يولي أمره إليها لا بد أنه خاسر، كما حدث حين سأل بطل القصة مستغرباً عن سبب فقر أهل البلد التي يزورها فقيل له: «إن السبب هو أنه يحكمها امرأة»[٥٦] وفي قصة «نهر الهداية»[٥٧] يطالعنا إيحاء واضح بأن المرأة لا تحسن التصرف، تضيع الأمور بين يديها بسبب تفكيرها العاجز وغبائها المتمكن. تقول القصة إن الحظ أوقع في يد الزوج الفقير علبة سحرية بها ثلاثة أعواد كبريت، إشعال كل واحد منها يحقق أمنية، وتحت إلحاح الزوجة وتوسلاتها يقدم الزوج واحداً من هذه الأعواد لزوجته، فتطلب الزوجة من العود أن يجعلها جميلة، وتتحول في الحال إلى فتاة لا مثيل لجمالها، ويصادف أن يمر الملك ببيتها ويراها فيخطفها ويذهب بها إلى قصره ليتزوجها، ويضطر الزوج المسكين إلى إشعال العود الثاني ليطلب منه أن تتحول زوجته إلى قردة بمجرد وصولها قصر الملك، وتتحقق الأمنية وتعود الزوجة إلى بيتها وهي على هيئة قردة، فيضطر الزوج نزولاً عند توسلات أولاده إلى إشعال العود الأخير ليطلب منه أن تعود زوجته إلى صورتها الأصلية، وهكذا خسر الأعواد الثلاثة دون فائدة بسبب غباء زوجته وصغر عقلها.

كذلك مما يلاحظ هو أن تلك القصص عندما تعمد إلى تقديم القيم التربوية للأطفال تميل إلى جعل المرأة تمثل الجانب غير المرغوب من السلوك، في حين يحظى الرجل بتمثيل الجوانب المرغوبة منه. ففي قصة «الرهان العجيب» وصف الزوج بأنه طيب ودود ومحبوب من أهل قريته، بينما وصفت الزوجة بأنها حادة الطبع كثيرة السباب مؤذية للناس، تبدأ القصة كالآتي «... عاش صياد كبير السن يدعى طمبور، كان رجلاً طيباً محبوباً من أهل القرية خاصة الأطفال الذين كانوا يندفعون نحوه كلما أقبل عائداً من عمله فكان يعطيهم قطعاً من الحلوى والفاكهة... وما أن يقترب الموكب من منزله حتى تخرج زوجته مندفعة نحو الصغار قائلة لهم كل السباب... لقد كانت امرأة حادة الطبع تختلف عن زوجها الرجل الطيب الودود»[٥٨]. وفي قصة «السمكة الذهبية» صورت الزوجة طماعة حمقاء متهالكة على جمع الثروة، بينما ظهر الزوج طيباً قنوعاً متواضعاً لطيفاً، وتحكي هذه القصة حكاية صياد عجوز اصطاد في شبكته ذات يوم سمكة ذهبية فطلبت منه السمكة أن يعيدها إلى الماء مقابل أن تحقق له كل طلباته، فأعادها إلى الماء وهو يقول لقناعته ولطفه «اذهبي حيث تشائين... لا أطلب على فعلتي جزاءً»[٥٩]، وعندما

عرفت زوجته بالأمر «اتقدت.. غيظاً... وكشرت عن أنيابها ولطمت صدرها ونتفت شعرها وصاحت به: يا أحمق يا جاهل أما كان بإمكانك أن تطلب منها على الأقل سطلاً خشبياً جديداً»[٦٠]. أما في قصة «معروف الإسكافي» فقد «اشتهر معروف بين أهله وجيرانه بالأمانة والصدق، لكنه لم يكن سعيداً، لقد كانت زوجته غشاشة كذابة سليطة اللسان لا تكف عن توجيه الإهانات إليه وإصدار الأوامر»[٦١]. وفي قصة «الملك عادل» تظهر الزوجة مغرورة متكبرة كسولاً لا تحب العمل، سطحية التفكير، في حين نجد الزوج عاقلاً مفكراً مدبراً دمث الخلق يعمل على تقويم سلوك زوجته ويحاول إصلاحها، وتأخذ القصة في بث عبارات تشير إلى الفارق الأخلاقي بين الرجل وزوجته حيث تتوالى عبارات مثل: «فقال لها زوجها: هذه مظاهر يا سيدتي ويجب ألا نبالي بالمظاهر وأن نفكر في الواقع ونعتمد على أنفسنا ونعمل بأيدينا»[٦٢]، «فقال لها زوجها: لو كان عندك شيء من التفكير...»[٦٣]، «فقال لها زوجها: وقد أراد أن يعودها العمل والاعتماد على النفس»[٦٤].

ليس هذا فحسب بل إنه عندما يخطيء الرجل يبرر خطأه بأن منشأه المرأة فهي التي تتسبب في جعل الرجل يخطيء. في قصة «البجعات المتوحشات» يبرر انسياق الزوج وراء رغبات زوجته الضارة، بأنه نتيجة لسحرها وخداعها، إذ أن «الحظ السيء أوقعه في زوجة ماكرة استطاعت بسحرها وخداعها أن تجعله يحبها حباً جماً ويخضع لها ويطيعها وينفذ لها رغباتها كلها»[٦٥]. وفي نفس القصة يبرر إهمال الأب لأبنائه بسبب كيد الزوجة إذ كانت «كلما جلست إلى زوجها تقص عليه حكايات مكذوبة عن أولاده وتحدثه عنهم أحاديث سيئة لا أصل لها حتى غضب عليهم وأصبح لا يهتم بهم ولا يسأل عنهم»[٦٦].

وعندما يستدعي الموقف تصوير العلاقات العائلية فإن إناث العائلة هن اللاتي يمثلن الشر، فتظهر ـ شخصيات زوجة الأب وبنات العم والعمات والخالات وحتى الأخوات والأمهات ـ تظهر ممثلة لصفات الغيرة والحسد والحقد والكيد والرغبة في الإنتقام، في حين تظهر شخصيات الآباء والإخوان والأزواج في دور المنقذ والمعين والمرشد.

في قصة «غصون» نجد بنات العم يكدن لزوجة ابن عمهن التي حظيت بالزواج منه من دونهن، «فهن شديدات الحسد والحقد والغيرة، وتنطوي نفوسهن على كثير من الشر، وقد توعدن بقتل أي زوجة يقترن بها الفارس إن لم تكن واحدة منهن»[٦٧].

أما في قصة «أطفال الغابة» فنجد العمة تغار من أولاد أخيها وتكيد لهم الدسائس للتخلص منهم وتستحوذ هي وحدها على حب أخيها. تروي القصة أنه «... بعد أن نام الأطفال وتأكدت العمة من نومهم تركتهم وحدهم تحت الشجرة نائمين حتى تأتي الحيوانات المفترسة بالغابة لتقتلهم»[٦٨]، «ثم رجعت العمة إلى القصر وهي مسرورة لأن نفسها الشريرة قد دبرت حيلة أخرى للتخلص من أولاد أخيها»[٦٩].

وفي قصة «جبل العجائب» تظهر الأخوات يحسدن ويحقدن على أختهن الصغرى لفوزها عليهما بالزواج من الملك، وتصف القصة حال الأختين بعد زواج إختهما بأنهما «كانتا في غم شديد ولم يعد في قلبيهما إلا الحسد والحقد على أختهما الصغرى التي صارت ملكة البلاد»(٧٠) ويزيد الأمر ضراوة أن أختهما تنجب وهما لا تنجبان «فلا غرابة أن أختي الملكة اللتين لم ترزقا أطفالاً شعرتا بنيران حسدهما وحقدهما تزيد اشتعالاً، فانتهزتا فرصة نوم الملكة وخطفتا الطفلين سراً»(٧١). حتى الأم لم تنْجُ في هذه القصص من اتهامها بالحسد والغيرة والحقد والأذى. في قصة «وردي وأبيض وأسود» تصور الأم وقد طغت الغيرة والحسد على نفسها فتحولت إلى امرأة حاقدة تدمر سعادة ولدها بسب غيرتها من حبه لزوجته، «ومضت الأيام والحقد يأكل نفس الملكة ونار مقتها تزيد اشتعالاً حتى إذا انقضت بضعة أشهر على زواج ابنها دعته وعروسه ذات ليلة (...) وأقبلت عليهما تقدم لهما كأسين من شراب فما كادا يتذوقان مما فيهما رشفة واحدة، حتى خرا على الأرض بلا حراك»(٧٢).

وفي قصة «القصر الذهبي» لم تكتف الأم بالغيرة من زوج ابنتها بل امتدت غيرتها إلى ابنتها نفسها، «فالملكة غارت غيرة شديدة من زوج ابنتها الشاب وثروته وعظمة قصره وغارت مع الأسف من ابنتها نفسها وأضمرت السوء لبنتها وزوجها الغني»(٧٣).

وفي قصة «بنت دنو» تصور الأم على أنها جاهلة غبية ومؤذية وكلما زارت واحدة من بناتها آذتها ونغصت عيشها فتعمد البنت إلى طردها من البيت لترتاح من أذاها قائلة: «أماه بادري بالخروج من هذا المحل فقد أصبحت نذير شؤم ومصدر شقاء لعائلة كان يسودها الوفاق والأمن والاطمئنان»(٧٤).

وعلى عكس ذلك تطالعنا صور الأقارب الذكور فهم غالباً الطيبون والمرشدون والمعينون والمنقذون، فالأب مثلاً هو غالباً المنقذ والمعين والناصح الحكيم، والأخ هو الملاذ والملجأ، والزوج هو الرحيم المتسامح المرشد. في قصة «مسيلجه»(٧٥) عندما يخطف العفريت الفتاة لا ينقذها منه سوى أبيها الذي عاجل العفريت بضربة سيف من يده القوية، وفي قصة «أطفال الغابة» تطلب الأخت مطلباً عسيراً من أخيها وهو أن يحضر لها ماء الحياة الذي يجعلها أجمل الجميلات، وإحضار هذا الماء قد يكلف الأخ حياته ومع ذلك فإن حرصه على إرضائها جعله لا يبالي المخاطر فقد كان «محباً لأخته الصغيرة فقال لها سأبحث لك عن هذا الماء حتى أجده وأحضره لك فلا تفكري في شيء مطلقاً»(٧٦).

وفي قصة «ذو اللحية الزرقاء» يظهر الأخوان في صورة الفارسين الشجاعين المنقذين اللذين يقتحمان الأهوال لتخليص أختهما من القتل «وبهت الرجل القاسي فحياله الآن أخوا

زوجته... وكلاهما يرمقانه بنظرات وعيد ثم ما أسرع ما تناوباه بسيفيهما يمزقان جسده»(٧٧).

أما في قصة «الملك عادل» فيظهر الزوج في صورة المرشد والمعلم والمربي، فيفرض على زوجته القيام بأعمال كثيرة ليقوم سلوكها ويخلصها من عيوبها حيث يقول: «وحتمت عليك أن تعدي الطعام وتغسلي الأطباق وترتبي المنزل وتعملي السلال وتغزلي الصوف وتتجري في الأواني الصينية لأعطيك دروساً في الاعتماد على النفس وحب العمل وعدم الاتكال على أحد...»(٧٨).

وهكذا نلاحظ أنه في حين تجسد هذه القصص صفات الخير والمحبة والتعاون في شخصيات الأقارب الذكور تظل تركز على إبراز صور البغض والحقد والحسد ممثلة في شخصيات الأقارب الإناث.

إن تكرار ظهور هذه الصور القبيحة الممثلة لصفات الشر بين الإناث من أفراد العائلة الواحدة، إلى جانب كونه يقدم مثلاً سيئاً لما تكون عليه الأسرة الواحدة، هو أيضاً يدمغ الإناث بطابع عام واحد هو تأصل مشاعر الغيرة والحقد والكراهية في نفوس النساء لا يمنعهن من ذلك قربى ولا مودة أو محبة(٧٩).

الخاتمة

إن هذه المفاهيم الخاطئة التي تحتويها هذه القصص ترسم للمرأة نماذج مشوهة فيها كثير من المغالطة والبعد عن الواقع فنجد المرأة تقدم للصغار على أنها مخلوق سيء ومؤذ ودنيء في مكانته إذا ما قورن بالرجل كما أنها تتصف بمعظم الصفات القبيحة المكروهة مثل قلة العقل والجبن والعجز والغيرة والسطحية والتفاهة وحب المظاهر والإسراف والثرثرة وإفشاء السر وما ماثل ذلك من صفات سيئة.

إن استعراض هذه المفاهيم الممثلة لصورة المرأة كما ظهرت في تلك القصص يثير لدينا استفهامين رئيسيين هما:

هل هذه الصور صادقة في دلالتها؟ وما هي القيمة التربوية وراء إبرازها والتركيز عليها؟

بلا شك أن تلك الصور المقدمة عن المرأة تعكس نظرة المجتمع السائدة إليها وتعبر عن رأيه فيها. وما بروز تلك الصور في القصص إلا مؤشر يوضح مكانة المرأة في الحياة الاجتماعية، فهل يعتبر رأي المجتمع دليلاً على صدقها؟ إن الإجابة تحتاج إلى كثير من التأمل والبحث الموضوعي المتجرد، وسواء صدقت تلك الصور أم لم تصدق فإن السؤال المهم يظل هو ما هي القيمة التربوية وراء إبراز وتأكيد هذه المفاهيم عن

المرأة؟ ما هي الفائدة من تلقين الفتيات أن قيمتهن تكمن فيما يحتفظن به من جمال وصغر؟ وما هي الفائدة من تشريب الصغار أفكاراً تتضمن أن المرأة عاجزة وضعيفة ولا تستطيع أن تنفع نفسها أو تدافع عن ذاتها؟ وما هي الفائدة من حشو أذهان الأطفال بصور عن حمق النساء وغبائهن ومكرهن وكيدهن؟

لا نميل إلى القول بأن هناك غاية معينة وهدفاً مقصوداً لإبقاء المرأة في المكانة الأدنى، ونحسن الظن قائلين إنه مجرد عدم اكتراث بالنتائج وجهل بالعواقب، خاصة وأن البعض لا يرى للقصة دوراً أبعد من التسلية وقطع الوقت، وحيث إن الواقع يشير إلى أن للقصة تأثيراً قوياً في تكوين سلوك الطفل وتشكيل أفكاره وبلورة القيم والاتجاهات التي يسير عليها في مستقبل حياته، فإنه يصبح من الضروري مراعاة الحذر والحرص عند طرح بعض الأفكار والمفاهيم ومن ضمنها تلك الأفكار والمفاهيم المتعلقة بالمرأة ودورها في المجتمع، لأن مثل هذه الصور المشوهة للمرأة لها أثر قوي في تشكيل أفكار الصغار وتكوين اتجاهاتهم نحو المرأة سواء في وقتهم الحاضر أو في مستقبل حياتهم. إن الطفل الصغير لا يمكن أن يفرق بين الواقع وما يقرأه في الكتاب، وإذا كان روسو يرى أنه من الصعب على البالغ أن يقاوم ما يقدمه له مؤلفو الكتب من أفكار حيث يقول: «وإنها لمهمة شاقة أن يقاوم الإنسان المزاعم التي يوردها المؤلفون.... كي يصل إلى الحقيقة»(٨٠)، فما بالك بالصغار الذين يفتقرون إلى الخبرة والتفكير المنطقي. إن الطفل الصغير حين يقرأ عبارات تنص على أن المرأة قليلة العقل سطحية التفكير ضعيفة وعاجزة يقبل هذا القول على أنه حقيقة لا مراء فيها، فكيف يمكن أن يطلب منه ـ بعد هذا ـ أن يطيع ويحترم أمه وهي ـ في ظنه ـ لا تعدو كونها «امرأة» تحمل تلك الصفات الدنيئة التي أشار إليها الكتاب؟ وما هذه سوى واحدة من صور التذبذب في سقي القيم للأطفال، فنحن نكتب لأطفالنا عن بر الوالدين ووجوب طاعتهما، ونكتب لهم عن الأم ومكانتها في الدين الإسلامي وما هي أهل له من احترام وتقدير وفي نفس الوقت نكتب لهم أمثال ذلك السخف المتمثل في تلك الصور المشوهة للمرأة، فنجني على صغارنا بجعلهم يلهثون خلفنا متعبين في محاولاتهم فهم ما نريده منهم.

إن هذا الأمر يدفعنا إلى القول بأن الكتابة للصغار يجب ألا تكون أمراً الهدف منه التسلية فقط، وأن المحتوى الذي تحمله تلك الكتابات ينبغي أن يتضمن ليس تقديم القيم التربوية فحسب بل أيضاً تجنب تقديم الأفكار الخاطئة والمضلّلة، إذ أن ما يغرس في الطفولة من قيم واتجاهات يبقى راسخاً في اللاشعور عند أولئك الصغار ولن يتمكنوا من التحرر منه مهما حرصوا فيما بعد، ولعل ما نراه في سلوك الرجل العربي اليوم من متناقضات بينة في موقفه تجاه المرأة ما هو إلا نتيجة لتصارع القيم والمفاهيم التي سقيت له أثناء طفولته مع ما يدركه عقلياً من مفاهيم واتجاهات يفرضها الواقع المعاصر

ويتطلبها المجتمع المتغير. ولأنه ليس من مصلحة المجتمع أن يستمر هذا الخلط في القيم والمفاهيم أو أن يكون هناك تذبذب في النظرة إلى المرأة ودورها في الحياة فإنه يضحي من الضروري الحرص على تغيير المفاهيم التي ترسمها القصة عن المرأة بحيث تصبح متسقة مع التغييرات الحديثة في المجتمع ومنسجمة مع الصورة الجديدة التي تسعى المرأة إلى تحقيقها.

وبعد فإن تراثنا الإسلامي والعربي يحمل صوراً مشرقة وكريمة للمرأة، إلا أنه وللأسف لم تقو تلك الصور على الصمود أمام منافسة الصور التقليدية المرسومة للمرأة. ورغم أن المجتمع ابتدأ يغير نوعاً ما من نظرته إلى المرأة ويتخلى عن بعض مفاهيمه تجاهها، ورغم أنه أخذ يرخي قليلاً من قيوده التي يكبلها بها، إلا أن هذا كله لم يترك أثره على صورتها في تلك الكتب المقدمة للصغار، وتظل قصص الأطفال لا ترى في المرأة سوى صورتها التي رسمتها لها حكايات ألف ليلة وليلة ومثيلاتها من الأساطير.

الهوامش والمراجع

(١) عبدالتواب يوسف: «حول أدب الأطفال في الخليج العربي»، **وقائع ندوة كتب الأطفال في دول الخليج العربية**، الرياض: مكتب التربية العربي لدول الخليج، ١٩٨٧، ص ٤٤.

(٢) ذكاء الحر: **الطفل العربي وثقافة المجتمع**، بيروت: دار الحداثة، ١٩٨٤، ص ٥.

(٣) حازم النعيمي: «مجلات الأطفال ودورها في تكوين المفاهيم»، **المستقبل العربي**، العدد ٧، ١٩٧٩، ص ١٢٩.

(٤) هادي نعمان الهيثي: **أدب الأطفال**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧، ص ٥٧.

(٥) روسو، جان جاك: **أميل** (ترجمة) نظمي لوقا، القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٥٨.

(٦) اميل، ص ١٦٣.

(٧) يرى بياجيه في نظريته حول النمو الإدراكي أن نمو الطفل الإدراكي يتطور تدريجياً مع تطوره في العمر وأنه لا يصل إلى مرحلة التفكير المجرد التي تتميز بتكوين الافتراضات والأحكام والمفاهيم إلا حين يصل إلى الحادية عشرة من العمر [هادي نعمان الهيثي: **ثقافة الأطفال**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون، ١٩٨٨، ص ٩٣].

(٨) ثقافة الأطفال، ص ١٨٢.

(٩) أدب الأطفال، ص ١٣٢.

(١٠) يصف الهيثي تفاعل الأطفال مع شخصيات القصص ومدى تأثرهم بإبطالها مشيراً إلى أن تعاطف الأطفال مع أبطال القصة يبلغ درجة عالية قد تدفع بهم إلى «القلق أو إطلاق صيحات الاستغاثة والبكاء حين تتعرض شخصية القصة لموقف محزن أو محرج، ويطلقون ضحكات صاخبة ويصفقون عالياً حين يتسنى للشخصية التي يحبون أن تنتصر» [أدب الأطفال، ص ١٤٢].

(١١) أدب الأطفال، ص ١٥٥.

(١٢) المستقبل العربي، ص ١٣٩.

(١٣)عبدالعزيز عبدالمجيد: **القصة في التربية**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٣، ص ١٠.

(١٤) الطفل العربي وثقافة المجتمع، ص ٤٥.

(١٥) محمد عطيه الأبراشي: **جميلة والوحش وقصص أخرى**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤.

(١٦) محمد عطيه الأبراشي: **الملك عادل**، القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ.
(١٧) نظمي لوقا: **جبل العجائب**، القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ.
(١٨) جبل العجائب، ص ٣ - ٤.
(١٩) مثل ما جاء في قصة «جبل العجائب» حين تتعرض الأخت الصغرى للأذى من أختيها بسبب غيرتهما منها لزواجها من الملك، وفي قصة «غصون» تكيد بنات العم للفتاة التي تزوجت ابن عمهن. وفي «الأخوات الثلاثة» تحيك الأختان الكبيرتان المؤامرات لصرف الأمير عن الزواج من أختهن الصغرى.
(٢٠) محمد عطية الأبراشي: **أطفال الغابة**، القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ.
(٢١) عبدالله الكبير: **البجعات المتوحشات**، القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ.
(٢٢) محمد عطية الأبراشي: **زوجة الأب**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤.
(٢٣) أطفال الغابة، ص ٢٢.
(٢٤) زوجة الأب، ص ١٥.
(٢٥) عادل الغضبان: **عروس البحر**، القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ، ص ٤.
(٢٦) عادل الغضبان: **الأخوات الثلاث**، القاهرة: دار المعارف، بدون تاريخ.
(٢٧) «أحب لغيرك ما تحب لنفسك» جميلة والوحش، ص ١٩.
(٢٨) جميلة والوحش، ص ٥.
(٢٩) جميلة والوحش، ص ١٦.
(٣٠) جبل العجائب، ص ٢٩.
(٣١) جبل العجائب، ص ٣٠.
(٣٢) جبل العجائب، ص ٢٤.
(٣٣) جبل العجائب، ص ٢٠.
(٣٤) جبل العجائب، ص ٣١.
(٣٥) جبل العجائب، ص ٤٠.
(٣٦) أطفال الغابة، ص ٣٠.
(٣٧) أطفال الغابة، ص ٢٢.
(٣٨) محمد عطية الأبراشي: «من أميرة إلى راعية أوز»، **الطفلان اليتيمان وقصص أخرى**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤.
(٣٩) بزه الباطني: «لعبة الصبر» **الحكايات الشعبية الخرافية**، الكويت: (بدون ناشر)، ١٩٨٨، ص ٢٩.
(٤٠) دار شهرزاد، **جلد الحمار**، بيروت: بدون تاريخ، ص ١٥.
(٤١) البجعات المتوحشات، ص ٣٢.
(٤٢) البجعات المتوحشات، ص ٣٤.
(٤٣) الأخوات الثلاث، ص ٣٥.
(٤٤) الملك عادل، ص ١٢.
(٤٥) القصة في التربية، ص ١٨٠.
(٤٦) عادل الغضبان: **قصير الذيل**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٠، ص ٦.
(٤٧) الملك عادل، ص ١٠.
(٤٨) محمد العدناني: **القدر السحرية**، بيروت: مكتبة لبنان، (بدون تاريخ).
(٤٩) محمد عطية الأبراشي: **الحانوت الجديد**، القاهرة: مكتبة مصر، (بدون تاريخ)، ص ٦.
(٥٠) محمد أحمد برانق: **سلطة**، القاهرة: مكتبة مصر، (بدون تاريخ)، ص ٢١.
(٥١) سلطة، ص ٢١.
(٥٢) محمد جميل عمر: **الولد الذكي**، تونس: (بدون ناشر)، ١٩٨٣، ص ٦.

(٥٣) الهادي بن ضياء: «الوصية المدهشة»، **أقاصيص تونسية**، سوسه: دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٨٦، ص ١٥.
(٥٤) سعيد العريان وآخرون: **بنت الأمير**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦، ص ٣.
(٥٥) سامي الأشقر: **القبعة المسحورة**، بيروت: (بدون ناشر)، ١٩٨٢، ص ١٤.
(٥٦) سامي الأشقر: **الحظ النائم**، بيروت: (بدون ناشر)، ١٩٨٢، ص ٨.
(٥٧) الهادي بن ضياء: «نهر الهداية»، **أقاصيص تونسية**، سوسه: دار المعارف للطباعة والنشر، ١٩٨٦، ص ٥٩ ـ ٦٢.
(٥٨) محمود عبدالغفار الحارث: **الرهان العجيب**، الخرطوم: دار الحارث، ١٩٨٨، ص ٣ ـ ٤.
(٥٩) مكتبة سمير، **السمكة الذهبية**، بيروت: (بدون تاريخ)، ص ٢.
(٦٠) السمكة الذهبية، ص ٤.
(٦١) ناديا دياب: **معروف الإسكافي**، بيروت: مكتبة لبنان، (بدون تاريخ)، ص ٣.
(٦٢) الملك عادل، ص ٢٨.
(٦٣) الملك عادل، ص ٣٣.
(٦٤) الملك عادل، ص ٣٦.
(٦٥) البجعات المتوحشات، ص ٦.
(٦٦) البجعات المتوحشات، ص ٦.
(٦٧) بزه الباطني: «غصون» **الحكايات الخرافية الشعبية**، ص ٣٨.
(٦٨) أطفال الغابة، ص ٧.
(٦٩) أطفال الغابة، ص ٢٠.
(٧٠) جبل العجائب، ص ٩.
(٧١) جبل العجائب، ص ١٠.
(٧٢) عبدالفتاح عبدالمقصود: **وردي وأبيض وأسود**، القاهرة: مكتبة مصر، ١٩٨٨، ص ١٤.
(٧٣) محمد عطية الأبراشي: **القصر الذهبي وقصص أخرى**، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤، ص ٩.
(٧٤) علي بن هاديه وبلحسن البليشي: **بنت دنو**، تونس: الشركة التونسية للتوزيع، ١٩٨٣، ص ٣٦ ـ ٣٧.
(٧٥) بزه الباطني: «مسيلجة»، **الحكايات الشعبية الخرافية**، ص ٨١.
(٧٦) أطفال الغابة، ص ٢٠.
(٧٧) عبدالفتاح عبدالمقصود: **ذو اللحية الزرقاء**، القاهرة: مكتبة مصر، (بدون تاريخ)، ص ٢٣.
(٧٨) الملك عادل، ص ٤٠.
(٧٩) من الأمور الملفتة للنظر أن هذه الصور الكثيرة للكراهية والحقد والغيرة بين الإناث لم يدخل فيها «الضرائر»، مع أن المتوقع أن صور الغيرة والكراهية والحقد بين الضرائر من أقوى الصور وضوحاً في هذا الشأن.
(٨٠) أميل، ص ٣٢٥.

* * *